الدواء الذي يخلق العبقرية

للسير ماكس پمبرتون

بقلم الأستاذ ذ. ني خشبه

... وقال الأمير وهو يضع الشمعة وراء القارورة التي بين إصبعيه فيضيء السائل الذي فيها : « على أنني لا أدري ما ذا يمنع أن يوجد عقّار يجلب الذكاء ويخلق العبقرية كهذه العقاقير التي تشفي الأجسام وتطبها ، وتجعلها قوية البناء مفتولة العضل !! »

واستولى العجب على جون ما كلسفيلد أوف برادفورد ... الرجل الساذج ... الذي كان البله يترجرج دائماً في حدقتيه ، فاعتدل وقال : « أتعني أنه في وسعك أن تخلق عقولاً لمن ليس لهم عقول ؟ »

وكان الأمير أوتو ينتظر أن يلقى عليه هذا السؤال ، فتبسم ثم قال : « حقاً ياجون... ولم لا ؟! أبداً لم يخامرني الشك في هذا أبداً ... وإني لمقتنع جداً أننا نستطيع أن نبني الأذهان فنجعلها ذكية عبقرية كما استطعنا أن نبني الأجسام فجعلناها هرقلية حديدية ... والأمر سهل ياجون ... فكما استطاع الطب أن يعالج لين العظام في الأطفال ، فكذلك نستطيع نحن أن نزيد المادة السنجابية التي تكسو تلافيف المخ في رأس الشخص الأبله فيصبح ذكياً متوقد الذهن ... وإليك مثلاً ياجون ، ابنتي حنّة هذه الجالسة أمامك ، فلقد مرضت منذ اثنتي عشرة سنة مرضاً خطيراً ، أشفت منه على الهلاك ، حتى لقد قرر أطباؤها في رومة والبندقية أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر ... وقد جزعت لذلك جزعاً شديداً ... بيد أنني ضربت برأيهم عرض الأفق ، ثم فرغت لتطبيبها بنفسي ، معتمداً على تجاربي ... فانظر إليها الآن ، وقل لي ما رأيك في هذا الشباب الريان ، وذاك الإهاب الفينان ... أليست هذه معجزة ياجون ؟ »

ولم تكن في رأس الرجل أثارة من الوعي يدرك بها الجمال المجسّد في الفتاة الجالسة أمامه ... ولم يُثر خاطره مرأى هذا الأمير أوتو ... الرجل العجيب ... الذي اشتعل الشيب في رأسه ، والذي أصبح اكتشافه العلمي الخطير حديث الأهالي في لندن العتيدة ، والذي فر من العالم الواسع الصاخب ليزوى في هذا المنزل السحيق في بركلي سكوير ، ليعيش فيه كما يعيش سحرة الشرق ومشعوذوه

وهكذا جلس الرجل الساذج جلسة بلهاء لا يعنيها شيء من هذا الجو الهادىء الذي انعقدت فيه سحائب البخور ، وتهدهدت إليه نغمات الأرغون التي أنشأت ترن في بطن الوادي القريب ، فتردد أصداءها أكواب البلور وأطباق المرمر البندقي المرصوصة على المائدة الفخمة وسط الغرفة الرائعة ... لا ... لم يُعن جون ، تاجر الأصواف الانجليزي الذي نزح من لندن إلى دلماشيا ليعقد فيها بعض صفقاته التجارية ، بشيء مما حوله في غرفة هذا الأمير أوتو ... ولم يشغله شيء من جمال هذه الحسناء الايطالية الفتان التي تأمر

بجمالها الأبالسة ... ولم يشغله أوتو نفسه بهذا البريق الخاطف المنبعث من عينيه اللؤلؤيتين ، بل ، لقد نظر حوله فى غرارة وغفل ثم قال : « شىء مدهش حقاً أيها الأمير ... لطالما فكرت قبل اليوم فى أن يكون لي عقل عبقري راجح ليكون لي به مركز ممتاز فى الحياة العامة ... وطالما كنت أنظر إلى رئيس وزارة بلادى ، وتأخذنى الغيرة من إعجاب الناس به ، واستعظامهم له . مع أنه رجل عادي لامزية له على الجماهير إلا هذا اللسان الذرب الفصيح يخلب ألبابهم به ، وإلا عقله الراجح الذى يروّي به فى الأمور ويسيّر به دفة الدولة ويصرف شئونها ... لقد كنت أنظر إليه وقد التفت حوله الآلاف المؤلفة من الناس يصغون له ويستمعون إليه ، فتأخذنى الغيرة وتنشب أظفارها فى صدرى ... وكنت أقول : « جماهير من الدهماء يسحرها رجل بهرج القول » ولكنى كنت أرى مئات العقلاء بعد ذلك يحدقون به ليأخذوا عنه الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة فأرجع إلى نفسي ، وألبث أتمنى لو أوتيت من الذكاء بعض ما أوتى هذا الرجل الثرثار اللبق ... فإذا كنت تضمن لى ذلك بهذا السائل الذى فى قارورتك فإنك تكون رجل العجائب حقاً ... ! »

وتناول الأمير لفافة فأشعلها فى هدوء ثم أخذ يُدخن ، وينفث الدخان فى صمت ... وقال بعد لحظات « عزيزى چون ما كاسفيلد ... إذا وكلت إلىّ نفسك لمدة ستة أشهر ، فليس أيسر على من أجعلك خطيباً من أبلغ خطباء العالم ، ومفكراً عبقرياً من أعظم مفكريه بحيث تسمو على حكماء مملكتك بشرط ... أن تثق بى ثقة عمياء غير محدودة وأن تخضع إرادتك لى إخضاعاً مطلقاً ، وأن تصنع ما آمرك به من غير مناقشة ولا استقصاء ! »

ولوى چون عنقه ، فتأرجح رأسه من فوقه كالذى يوافق وإن لم يقتنع ، ثم قال :

— وعملى ؟ !

فهز الأمير كتفيه وأجابه : ألست رجلاً غنياً واسع الثراء ؟

فارتبك چون وقال : أوه ... من هذه الوجهة فأنا غنى

فقال أوتو : وقد حلمت أحلاماً طائلة بالشهرة والمجد ؟

فقال چون : حقاً لقد فعلت ، ولقد فكرت ألف مرة أن فى الدنيا أشياء عظيمة ، ومطامح واسعة غير تجارة الصوف ! »

فأجابه أوتو : إذن ليس عليك إلا أن تكل نفسك إلىّ ، وأنا كفيل بمنحك الذكاء الذى تريد ، والعبقرية الواسعة التى تشتهى !

فنظر چون إلى القارورة الصغيرة فى بَلَه وغرارة وقال : « من هذه القارورة ؟ ! » وهنا تبسم أوتو وتناول القارورة ، ثم جعل الشمعة من ورائها فاختلطت أضواؤها بالسائل العجيب مرة أخرى ، ونظر چون إلى القارورة فشعر كأن سحرها ينتقل إليه ، وكأن أضواءها تختلط بروحه ، ونظر حوله فوقعت عيناه على طاس الأزهار على المائدة ، فرآها أجمل مما عهدها وأنضر ... وخاف الرجل الساذج مما أحس ورأى ، فانتصب واقفاً ثم قال : « إنك تمزح أيها الأمير أوتو .. إنك تهزل »

ومن غير أن يستأذن انفتل من الغرفة ، ثم من المنزل جميعاً ...

ولاحظ الأمير أن ابنته تتبع الرجل بنظرات حادة ، فاستطاع أن ينفذ منها إلى سرائر نفسها ، وراح يتحدث إلى نفسه هكذا : « أوه يا حنّة ! لقد فتنك الانجليزى من غير ريب ! لقد رأيت الفارق العظيم بينه وبين الأجلاف الذين شهدتهم فى إيطاليا ... الرجل جميل يا حنة ... وأمين ... وبناء جسمه يجذب داعى النساء ، وهذه ملاحظة لايدركها إلا علماء وظائف الأعضاء ... أوه ! إن هذا الرجل ، إن جون ما كلسفيلد ليس فى رأسه ذرة من الذكاء لكن له كاهلاً عريضاً ، وكتفين عظيمين ؛ ثم شعره ... شعره السكسوني ! مسكينة يا ابنتى ! إنها لا شك تعبده ، وتتمنى لو تتزوجه ، إذا رزقه الله قليلا من الذكاء !

والتفت إلى حنة فجأة ثم قال : « حنة ! ما ذا ترين فى هذا المستر ما كلسفيلد ؟ »

وكانت حنة قد انصرفت إلى الأرغون ، بعد إذ انصرف الانجليزي تاجر الأصواف ، تلعب عليه بعض قطعها وكانت نار الموقد تتوقد وتلتهب قريباً منها ، فلما التفتت إلى أبيها تجيبه انعكس ضوء اللهب على شعرها الذهبي الأحمر ، فبدا وجهها الجميل الناصع كأنه وجه صورة فتانة أمام مصباح خافت ذى ذبالة ترقص وتنتفض

وقد يحسب الانسان أنه من الشذوذ ، أو أنها مبالغة شاذة ، أن هذا الجمال الرائع لم يجذب إليه عينى جون ما كلسفيلد .. ولكن هذا هو الذى استنتجه الأمير أوتو ، وهو أيضاً الذى كان موضع دهشه وطول تعجبه ... وعلى كل ، فقد انتظر الوالد فى تلهف شديد جواب ابنته ، التى انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة خبيثة وهى تجيبه فتقول : « والله يا أبى إنى لا أدرى ما ذا أقول ! من يستطيع أن يفهم هؤلاء الانجليز ؟ إن براعتهم المدهشة هي فى هذا الصمت العجيب ! » ، وكأنما سلم أبوها بهذا الرأى ، فقال : « إن للانجليز عقولاً . ولكنها ليست كعقولنا يا ابنتى . على أنها عقول تنتسب إلى بيئتها ومناخها الذى نشأت فيه ... وهذا هو السر فى قصور عقلية ذلك المستر جون ما كلسفيلد ... فهو يعيش فى دنيا كلها صوف ، وهي لذلك كلها أغنام ومروج ، وليست شيئاً غير الأغنام والمروج ياحنة .. إنه لا شك يفكر كثيراً فى مزاجنا الخفيف الشعرى المرح ... مزاج شعوب هذا البحر الأبيض المتوسط ... هذا المزاج الذى ترعرع فى آلاف من سنين الشمس والموسيقى ... وهل المخ إلا هذا الغشاء الرقيق الذي يستطيع الصوت والضوء أن يلعبا فوقه ... وليس الصوت والضوء فقط ، بل إرادة الناس الآخرين ... وذاك هو ما نسميه التعليم أو التهذيب ، الكتابة فوق غشاء المخ بيد مهذبة صناع ! فاذا أردت ، جعلت هذا المستر جون يرى ألف رؤيا عجيبة فى هذه اللحظة ... الآن ... بحيث ينهض فيفتح بيديه أبواب عالم واسع شاسع لم يكن له به عهد من قبل ، فيسمع كلمات لم تتردد أبداً فى أذنيه وسرعان ما يرددها هو ؛ وينطلق بها لسانه ، وقد يجتمع الناس حوله فيشهدون أنهم لم يكونوا يعرفون هذا المستر جون من قبل ... وهكذا يذيع اسمه فى الآفاق ، وقد ينسى عالم

الصوف الذي يشل تفكيره ، وينطى ذهنه بطبقة كثيفة من الغباء ... وأنا لا أشك في أنه لا بد صنع لما أشرت به عليه ، فاذا فعل فسترين كيف أبدر بذورى في هذه الأرض البكر الخصبة فهل يسرك هذا إذا فعلته يا حنة ؟ ! »

وشاع البشر فى وجه الفتاة ، وأقبلت على والدها بكل ذاتها فقالت له : « أبى ! لقد طالما حدثتنى أنك تستطيع أن تجعل أغبى الناس أذكى الناس ، فهل هذا حق يا أبى ؟ وهل أنت تؤمن بنظريتك التى استحدثتها ، أم أنك تحلم بها وحسب ؟ أصحيح يا أبى أنك تستطيع أن تمنح الأغبياء لَبابةً وحسن فهم ؟ أم ... »

ولم يشأ الأمير أن يجيب على ماسألت ابنته إجابة صريحة جازمة ... إذ الحقيقة أنه لم يَعْدُ طور التجارب والأبحاث فيما انتهى إليه — وإن لم يكن قد انتهى بعد

— إن من العقاقير يا ابنتى ما يتناوله بعض الناس فيكونون سحراء ، ونحن نستخدم هؤلاء السحراء وننتفع بهم ... والذى يأكل الأفيون يحلم وهو يقظان أنه ملك ، ولا شك أن مملكته شىء حقيق بالنسبة له ، وإن تكن خيالاً بالنسبة لنا ... ولا شك أيضاً أن ذهنه ، خلال ذلك ، يكون قوياً جباراً ، بصرف النظر عما يؤول إليه حاله بعد أن يفيق ... ولذا فهو يعرف من أسرار الحياة فى غيبوبته ، ويدرك من كنه هذه الأسرار ، ما لا يفهم منه فى يقظته قليلاً ولا كثيراً ، ولا يستطيع أن يدرك تأويله

فلم لا نجعل هذا الوهم حقيقة ، وهذا الخيال الطارئ واقعاً مستديماً ؟ إن مشروعى ليس مستحيلاً كما يتصور بعض الناس ، وهو بالضبط كالمشروع الذى أدى إلى اختراع التصوير الشمسى ... فقد كان الناس يرون صورهم واضحة جلية على الزجاج والمرايا ، لكنهم يعجزون دائماً عن تثبيت هذه الصور على الزجاج وتلك المرايا ... ثم أفلحوا ... فتحقق الحلم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى حقيقة واقعة ملموسة ، بعد أن كانت وسواساً كهذا الوسواس الذى يجول فى ذهن آكل الأفيون

وعلى هذا النحو كان اختراعى لهذا العقار الذى أستطيع أن أثبت به الصور والأخيلة فى ذهن الغبى من الأغبياء ، فيكون من أذكى الأذكياء ... وسيرى الناس كيف أقلب لهم العالم باختراعى رأساً على عقب ... آه يا حنة ! لقد طالما فكرت في هذا كله يا ابنتى ، منذ أن طردتنا الحرب الكبرى من أوطاننا ، وأخذت الحياة تسومنا الخسف فى هذا المنفى السحيق ... لقد قاست الدنيا رزايا لا حصر لها منذ جهل الناس أحلامهم اللذيذة التى كانت تخلق لهم مُثُل الفضيلة العليا ... تلك الأحلام التى كانت تشحذ الذكاء الذى لو توفر لحال دون وقوع الحرب الكبرى ... إنه لا هم للناس إلا بناء الأجسام ، وليس فيهم من حاول أن يبنى الأذهان ... وقد وقفوا جهودهم كلها على معالجة أمراض البدن ، فهم دائماً يجهدون فى منحنا لحماً وعظاماً ودماً ... وليس منهم أحد فكر فى منحنا أذهاناً ! ! وهذا لأنهم لا يحلمون ... مع أن الأحلام وحدها هى التى أدت إلى كل ما فى العالم من اختراعات كان مجرد التفكير فيها قبل أن تحقق ضرباً من الجنون

والهنيان ... لهذا يا حنة ... يا ابنتى ، لم أنِ أحلم وأتسامى ...

— وهل تحققت أحلامك يا أبي ؟ هل وفقت إلى ضالتك المنشودة ؟

— إنى موقن أنها قد تحققت ... وأثق أننى أصلح رؤوس الأغبياء ، بل أمنحهم ذكاء ولباقة ... فصاحبنا چون ما كاسفيلد مثلاً ، قد نسى فى هذه اللحظة طواحين مدينته العظيمة برادفورد ، وهو قد اكتشف فجأة ما فى هذا الليل من آيات وعجائب.. إنه لابد يرنو بعينيه إلى نجوم السماء التى تتألق فى جونا الصحو ، ثم هو يسائل نفسه عما يخامرها من الأحلام التى تولدها فيها هذه النجوم ... وهذا كله بفضل كلماتى التى أثارت فيه تلك الأحلام ... وهو لا شك منتقل من أحلامه الساذجة إلى ضرب من التسامى الرفيع الذى سوف يشجعه ويحمله إلى تفكير أرقى ... وسيسأل نفسه لماذا هو تاجر بسيط ؟ وسينتبه إلى النفر القليل من بنى وطنه الذين برزوا من المدن والقرى الوضيعة فأصبحوا زعماء البلاد وذوى الصدارة فى المملكة ، وهو لابد محدث نفسه لماذا لا يقتفي آثارهم ليكون مثلهم ... وبهذا يتنبه شعور القوة الكامنة فيه ، فيعمل من فوره على توجيهها لخيره ... ومن يدرى إلى أين ينتهى به التطواف ؟!

وهنا ... تنهدت حنة من أعماقها كأنها لم تؤمن بعد بما آمن به أبوها ، ثم قالت : « لقد وجدت من المحال أن أتحدث إليه ... إنه كان يبدو كأنه لا يشعر بوجودى !! »

وتبسم الأمير ابتسامة حنان وعطف ولقد كان أوتو صادقاً فيما حدس به من أن چون ما كاسفيلد سيصبح فريسة لأحلام حلوة ... تثيرها فى رأسه الفارغ تلك الصنوف الفاخرة من الأشربات والآكال التى ذهب ليلتهمها فى غدائه ... فإنه ما كاد يخلو إلى نفسه فى غرفته الفخمة فى أعظم فنادق الهايد بارك ، حتى توجه إلى النافذة ففرَّج بين ستائرها ، ووقف يملأ ناظريه من جمال الجنة الفيحاء التى تتأرج وتتبرج أمامه ... تحت قبة السماء الصافية التى أخذ الهلال يسبح فى أعماقها ، كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من نجوم الربيع فى إقباله ... يا للمنظر العجب الذى لم يكن لجون عهد به من قبل ! هلم نصغ إليه إذ هو يتناجى ويحلم مسحوراً بمفاتن الطبيعة

« ... يا للفكرة !! إن هذا الرجل العجيب يزعم أنه يخلق الأذهان كما يخلق الأطباء الأجسام ! حسن... ولم لا ؟! فكرة غريبة وشاذة... وأكثر منها شذوذاً أن أحداً من الناس قبل هذا الرجل لم يفكر فيها ، ولم تخطر له على بال !! وفى الحق ، أنا لا أصدق مطلقاً أن فى وسعه أن يطب أحد المغفلين البلهاء فيجعله إسحق نيوتن مثلا ، أو أنه سيزود العالم بألف أديسون جديد[1] بحيث يجعلهم (تحت الطلب !) ... ولكن هذا السائل ؟! إنه شئ خلاّب من غير ريب ... والأطباء ... لم لم يفكروا فى مثل ذلك من قبل ؟! إنه سائل لا يضر ، فلماذا لا آخذه معى !! إن الرجل العجوز يؤكد أنه يضمن لشاربه الذكاء والفطانة ، فلم

(١) لم نشأ أن نحور هذا التعبير لطرافته

لأحمله دائماً فى جيبى ليحقق ما أصبو إليه من شهرة ومجد

إن هذا الأمير أوتو رجل حاذق صناع ... ولقد عرفت ذلك لأول وهلة .. إن له لعينين ينفذان فى فؤاد الناظر إليه ، ويشعلان النار فى رأسه ... إنه يسكن فى ذلك البيت العتيق ويحلم ... ويرسم الخطة للرجوع إلى وطنه .. الشرق ! الشرق العظيم الساحر ... الشرق الذى يلهم الغرب دائماً ... ولكن ... لله هذا العفريت الذى سجنه أوتو فى سائل القارورة ... تلك القمقم ! »

ثم ضرب يده فى جيبه فأخرج الزجاجة وراح يرنو إلى سائلها العجيب الجميل المتلألئ ... حتى إذا فتحها ، وعبقت رائحتها فى خياشيمه ، تبسم ضاحكاً وتحدث إلى نفسه فزعم أنها ستكون أعجوبة الأعاجيب فى برادفورد ... ثم وضع منها فى كوب خمسة عشر نقطة ، وجعل على النقط ماء واحتسى المزيج السحرى ، الذى لم يكن له فى حلقومه طعم لولا الرائحة التى انبعث شذاها في أنفه ، فعرف أن الماء غير الدواء ...

وكان يضحك أثناء ذلك ... ويحمد الله أنه لا يوجد أحد من برادفورد ليستهزئ به ويتهكم عليه ، إذ يغفل نفسه بتصديق هذه الخزعبلة !

ومضت خمس دقائق نسى بعدهن العقار الذى انصب فى جوفه ، وعاد إلى النافذة يستملى جمال الهايدبارك ... ثم شعر فجأة بقوة تتدفق فى أعصابه وخيل إليه أن الهايدبارك مزدحم بجماهير حاشدة تصغى إليه وهو يخطب فيها ... ثم إذا هذه الجماهير تتدافع وراءه ، وهو على رأسها إلى دار البرلمان فى وستمنستر ... ويقف فى القاعة فيلقى خطاباً سياسيًّا يقرر به مصائر أوربا ... ويسمع بأذنيه ثناء الأعضاء عليه ، وإعجاب الناس فى الشرفات به ، وافتتان الجميع ببلاغته وقوة عارضته ... ويسمع بعض الحضور من بنى دائرته يتهامسون : « لله أنت من خطيب مصقع يا أخانا چون ! »

وكانت الساعة الثانية صباحا ... فانكفأ إلى فراشه وهو يحلم بالمجد وذيوع الصيت ... ثم تذكر الغادة ... الفتاة الفينانة ... ابنة أوتو أوف متكوفتش ... وعجب كيف لم تتراء له فى أحلامه !

« حنة ! أين أنت يا حنة ؟ ! »

* * *

وعاد تاجر الأصواف إلى برادفورد ، وكلما مضت الأيام اشتد اختلاف الناس فى أمره ، وحاروا فى هذه المتناقضات التى كانت تبدر منه فينسبها بعضهم إلى الجنون . ويردها بعضهم إلى ذكاء خارق ظهر فجأة فى جون

واشترى قصراً منيفاً فى لندن ... وأخذ يدعو إليه كبار الموسيقيين

جون ماكليسفيلد ... هذا التاجر الغبى الذى لم يكن يفقه من الدنيا غير الشاء والثغاء[1] يصبح أذناً للموسيقى فلا يسمعها إلا من زعمائها الفنانين العباقرة !

ولم يقنع بتزيين جدران قصره بصور الفنانين الإنجليز ، بل كان يرسل رجاله ليدخلوا منافسين فى أسواق الصور الإيطالية ، فيشتروا له القطع الفنية التى يعجز أغنى الأغنياء عن دفع ثمنها

(١) الثغاء صوت الغنم

جون ماكسفيلد ! هذا الكبش العظيم ! ! لا يوجد في معارض الفن من يقدر آياتها كما يقدرها هو !

وانتهى أكثر الناس إلى أنها إمارات جنون من غير شك ، ستفتح لتاجر الأصواف مستشفى المجاذيب على مصراعيه

إسمع إلى هذا العين من أعيان الشمال يقول فيه : « ينصب من نفسه خطيباً في السنترال هول بوستمنستر فيخلب ألباب الناس ببلاغة لا عهد لهم بها ، وبيان مشرق لم يسمعوه من أنبغ زعمائهم ، وفكر عميق مرتب لا يقدر عليه إلا الأقلون ..؟ .. أفذاك هو هذا الكلب القذر ... كبش برادفورد ... الذي لم يكن لأيام قلائل يفقه من أمور الدنيا إلا النماج والذهب الوهاج ؟ ! جون ما كسفيلد ! ! ما شاء الله »

فهذا الذي يقوله هذا العين ، ناحية مما صار إليه جون ... فهو إلى فصاحته وسمو تفكيره ، قد أصبح رجلاً ممتازاً حاضر البديهة متوقد الذهن ، لا يكاد يوجه إليه سؤال حتى يعطى جوابه الناضج المبين فى أسرع من البرق ، ثم هو يستعمل فى أحاديثه طرائف الأدباء المبرزين ، ولا يفتأ يضمنها فقراً طليانية من بترارك وبوكاشيو وأضرابهما ...

وقد حار الناس فى رفيقيه اللذين يلزمانه كظله أينما سار وحيثما توجه ... هذا الرجل السمهرى

عدد الرسالة السنوى الممتاز

بمناسبة العام الهجري

كتاب قيم خالد

يؤلفه أربعون من أقطاب البيان فى جميع أقطار العروبة ،

ويشتمل على جملة من صفوة الرأى ومختار الكلام فيما يتصل

بمجد الاسلام وأدب لغته وحال أهله

سيصدر فى يوم الاثنين المقبل ٢١ مارس فى ٩٠ صفحة

الأشيب ، الذى يدعوه الأمير ... وتلك الفتاة الحسناء الهيفاء القسيمة الوسيمة ، التى تشيع السحر فى جو المكان الذي تكون فيه

والمدهش من أمر جون أنه لم يكن أعرف من أهل برادفورد بسر نبوغه وتفوقه ، إلا أنه كان يؤمن بأنه أصبح ظلاً لهذا الأمير أوتو ، وأنه لاينطق ولا يفكر ولايتدفق فى خطاباته إلا بوحى منه أو إيحاء ، فإذا سأله سائل عن مسئلة اتجه بعينيه الضعيفتين إلى عيني أوتو القويتين ، حتى إذا تم بينهما الاتصال الروحى الذى لابد منه ، ولا محيص عنه ، إنطلق يجيب فى فصاحة بالغة ، وبيان عذب قوى ، بحيث يتغلغل إلى سويداوات سامعيه ، ويسحرهم عن أنفسهم ... فإذا فرغ وفاء إلى نفسه ، عرف أنه كان يتكلم بلسان جون ، ويفكر برأسه ... وأن القطرات التى شربها قبل أن يتكلم ليست هى التى واتته بهذا الذكاء وذاك البيان ، وإن تكن حقاً قد مهدت لها

* * *

ولقيه أحد أصدقائه الكهول يوماً فى شارع أكسفورد فافتر باسماً وقال له : « أوه جون ! لشد ما تغيرت فى هذه الحقبة الأخيرة من حياتك ... ولشد مانحن معجبون بك ... أجل يا ... فتى ! ... ومع ذاك ، فإنك لم تدخل الوزارة بعد ، وليس فى أعضائها من هو أكيس منك ولا أحذق ولا أصدق بياناً ... فلم لا تفعل ؟ »

وراغ جون بجواب مقتضب مؤدب ، ثم انفتل فى معرض فرنسى للصور حيث وقف مسبوهاً أمام صورة رائعة للمسيو كلمنسو ... ثم باريس !

ولما لم يكن له أى إلمام بالسياسة الفرنسية ، فقد وقف حائراً أمام صورة السياسى الداهية الذى درأ عن فرنسا أيما خطر خلال الحرب الكبرى ... وهنا خطر له فجأة أن يعود أدراجه إلى مسكنه ليكتب نداء يناشد فيه الفرنسيين والأمريكيين أن يعملوا متعاونين لما فيه سلام العالم العام وأمنه وطمأنينته ، وأن يطرحوا سخائم الماضى التى ينفخ فى نارها الساسة للبائهم الشخصية .. ولم يدر جون ماذا أثار فى خاطره هذه الفكرة ... لكنه التفت فوجد صاحبه الأمير أوتو قريباً منه ، ورأى ابنته حنة واقفة عند صورة تدقق فيها نظرها

— لقد كنت ترمق صورة المسيو كلمنسو بعينين مشوقتين !

— أوه .. هذا صحيح .. لقد أغرانى الاعلان الضخم ، فدخلت أتفرج بهذه التحف .. وأحسبك تذكر يا أوتو أننا كنا نتكلم عن هذا المسيو كلمنسو على مائدتك أمس !

— أجل . أذكر هذا

ثم لف ذراعه حول ذراع ماكلسفيلد ، وراحا يذرعان المعرض جيئة وذهاباً ، والأمير أوتو يشقق الأحاديث عن الفرنسيين والأمريكيين ، فيشرح لصاحبه تاريخهم وأحوالهم وسيكلوجيتهم

— .. ومن فى الانجليز يستطيع أن يهذب معلوماتهم عن الأمم الأخرى مثلك يامستر جون .. على أنه قد يأتى اليوم الذى تبث الدعاوة بينهم عن وطنى المنكوب ، ومبلغ ما لقى من التعاسة بسببهم فيصلحون بعضاً من أخطاء الماضى !

— أنا ؟ .. أنا لا أعرف من ذلك كثيراً ولا قليلاً أيها الأمير !

— إن كنت لا تعرف منه قليلاً ولا كثيراً ، فبقليل من الذاكرة تستطيع أن تعرف كثيراً جداً والآن ... يجب أن نذهب مع حنة إلى مطعم سيرو فقد وعدتها بذلك ... أين هي ... ؟

— أوه ! إنها هناك ... ها هي ... مالها لا تريم عن هذا النقش السخيف ... أية صورة هذه التي تقف أمامها مأخوذة مسحورة ... ؟ سبعة آلاف جنيه ؟ ! ثمن باهظ ... إني لا أشتريها بخمسة جنيهات إذا عرضت عليّ !

* * *

وذاع صيت جون ما كلسفيلد في جميع أرجاء لندن .. ودهش الناس لم لا يكون عضواً في الوزارة إن لم يكن رئيساً لها ، وهو هذا المفكر العميق ، والخطيب المصقع ، والكاتب الذي لا يشق له غبار

وتكلم الناس في هذا الصدد ، وأكثروا فيه الحوار ولا سيما حينما أذيع اعتزام الحكومة عقد مؤتمر عام في قاعة ألبرت هول لبحث موضوع « تخليها عن الصناعة للأهالي » وما ذاع من أن رئيس الوزارة والمستر جون ما كلسفيلد هما وحدهما خطيبا هذا المؤتمر

وحدث تغير فجائي في نفس المستر جون !

فقد ثارت فيه كبرياؤه وعز عليه ألا يكون شيئاً إلا بهذا الأمير الأشيب أوتو متكوفتش ... وصمم أن يعد خطبته في (تشعيب الصناعة[1]) بنفسه وأن يذهب إلى قاعة ألبرت هول دون أن يصحب الأمير أو ابنته معه ... « ولماذا ؟ أمن أجل هذا الوهم الذي تسلط علي فأحسب أنني لا أستطيع التفكير بدونه ولا الخطابة إلا بإيحاء منه ؟ ! لا ... لن يكون هذا بعد اليوم ... لا بد أن أستقل عن هذا الرجل الذي استلب إرادتي ، وقبض على آلة تفكيري ، فلا تدور إلا بإذنه ... إن هذه فرصتي إلى الوزارة ، ولن أرقى إليها على أكتاف الغير ... إن الناس في برادفورد مفتتنون بعظمتي ، والانجليز كلهم مسحورون بشخصي ، فما خوفي أنا ألا أكون شيئاً إلا بالعجوز أوتو ؟ أكل هذا خداع في خداع ؟ ثم تذكر السائل فصمت قليلا ، وحدث نفسه فقال: « لا بأس سأتناول الجرعة قبل أن أذهب ... إنه شراب مقو يبعث في النفس شجاعة وانشراحاً ، وفي اللسان براعة وانطلاقاً ، لكنه لا يخلق البيان ولا يوجد الفصاحة من العدم في اللسان ... إن بلاغتي هي طبع فيّ كان مستوراً ، وإن هذا السائل العجيب الذي أتجرعه من الزجاجة الخضراء هو الذي ساعد على اكتشافها ... إنه لم يصنع شيئاً غير هذا ... فلأشرب الجرعة إذن ، ولأذهب بمفردي ... »

ثم شعر فجأة بالاحساس السحري يتلبسه ... وبالقوة الخفية الهائلة تشيع في أعصابه ... وهنا يتغير تفكيره ، ويحس بحاجته الشديدة إلى أوتو متكوفتش ... وتذوب حماسته السابقة ، وتتبخر ، ويؤمن من جديد أنه ليس شيئاً مذكوراً بغير هذا الرجل الأشيب الهائل ، ويحس كما تعود أن يحس من قبل أنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة إلا إذا أوحاها إليه أوتو ... ويذكر حاله قبل أن يلقاه في

(١) أي أن تنزل الحكومة عن الصناعة للشعب

والشيا فيبتسم ضاحكا مما كان فيه من غباء وغرارة وجهل ، ثم يرى إلى نفسه الآن رجلا يشار إليه بالبنان ، ويجرى ذكره على كل لسان ... وهـذا بفضل الأمير أوتو !

« لا ... أنا هازل ... لا بد لى فى ذلك اليوم الموعود من أوتو متكوفتش ... إنه رجل عبقرى.. وأنا لا أكون شيئاً إن لم يصحبنى إلى هناك ... هو ... أو ... حنة ... لا بد لى من أحدهما ... ولا بد أن يجلس فى الصف الأمامى ليكون أثره بالغاً حده الأقصى فى وجداني ... »

ثم سمع هاتفاً يردد فى روعه هذا النداء : « أجل . أجل يا جون ما كاسفيلد ... إياك أن تذهب إلى المؤتمر بدونى ... إنى أرغب أشد الرغبة أن أكون معك اليوم كما كنت معك بالأمس وقبل الأمس وفى كل مرة ... إن لدي أفكاراً وإن لدى خططاً سترفعك إلى الذروة... أسمعت ؟ إياك أن تنسانى... إحذر أن تتحرك إلى قاعة ألبرت دون أن تصحبنى ... »

ولم يكن هذا الهتاف وهماً ... لقد كان يتردد فى أذنيه كأن أوتو واقف أمامه ... حتى أنه وقف وشكره ، وأكد له أنه لن يذهب وحده ... ثم مد إليه يده فصافحه ... وحينما فتح عينيه ... لم يجد أحداً فى الغرفة معه !

وعرف أنه الوهم مرة أخرى ...

وعاد يفكر من جديد فى وجوب التخلص من هذا الخداع .. فصمم على أن يذهب إلى المؤتمر وحده وأن يبنى مجده بيديه... وأن يرفع اللبنات التى تشيد هرم مطامحه فوق كتفيه هو لا فوق كتفى شخص آخر ... وكان هذه المرة جاداً فى تصميمه ، معتزماً ألا يعتمد على أحد فيما يصبو إليه من رفعة ووزارة ومجد ...

ولم يبق على المؤتمر إلا أيام ، وكان يذكر صاحبه أوتو فتشرق أساريره مرة ، وتظلم وتحتلك مرات ... ثم سمع من أحد معارفه أن الأمير مريض ، فكان أول ما خطر له أن ينطلق من فوره فيزوره ... فلما كان فى طريقه إلى شارع شارل ، حيث منزل أوتو متكوفتش ، جعلت الذكريات تتردد فى خاطره وتلح فى ترددها ، ولم يستطع جون أن ينكر أيادي الأمير عليه .. والشهادة له بأنه صانعه .. وإن كانت كل تلك الهواجس تجعله في حيرة من أمره ...

— أبى مريض يا مستر جون ... إنه مريض جداً .. وهو مايفتأ يشكو بذات الرئة .. والأطباء يؤكدون أنها حادة ... لقد ضعف وهُزل حتى قد لا تستطيع أن تعرفه إذا رأيته

وبدا الغم فى وجه الرجل ، وشاع فيه الحزن العميق ... ثم نظر إلى حنة فى غير عمد ، فبهره منها هـذا الشعر الأحمر الذهبي ... وإن لم ير فيه إلا الاشفاق عليها ، والرثاء من أجلها ، والتفكير فيما يؤول إليه أمرها إذا مات أبوها

— حنـة ! لابد من استدعاء إخصائى فى الأمراض الصدرية ... وأظن أن السير سبنريان هو عمـدة الأطباء فى ذات الرئة ... أليس لكم ممرضة يا حنة ؟!

— أنا هنا الممرضة والابنة يامستر جون ... إن أبي يأبى أن يمرضه أحد غيرى

وناقشها المستر جون فى قيامها بتمريض أبيها ، ومع أنه أقنعها بأن السهر على صحة المريض مرهق لشبابها وأنه لابد من ممرضة أخرى خبيرة بفنون التمريض إلا أنها لم تشأ التخلى عن هـذا الواجب المقدس ولم تقبل أن تنزل عنه لأحد

* * *

وعاد المستر جون ماكاسفيلد إلى فنـدق (رتز هوتل) ... وعاد أيضاً يفكر فى خطبتـه المزمعة فى قاعة (ألبرت هول) ، وهى تلك الخطبة التى ترتكز عليها كل آماله فى دخوله عضواً فى الوزارة ... ثم بدأ شىء من الأسف يخامره لمرض الأمير أوتومتكوفتش ... وتمنى لو عوفى قبل الموعد المضروب لإلقاء الخطبة ... ثم تخيَّله جالساً فى جميع الأندية والمسارح والمجتمعات التى كان يلقى فيها خطبه فى الصف الأول من المستمعين ، وتخيل عينيه العميقتين تشعان السحر والكهرباء فى نفسه فيتدفق بياناً كما يتدفق صيّبٌ من السماء فيحيي الأرض بعد موتها ... ثم تخيل ضرورة حضوره هذا المؤتمر ليتم له النجاح المنشود وليفوز بعضوية الوزارة ... وأخذ يشك فى النجاح إن لم يحضر أوتو ... وأخذ الشك يكبر ويتعاظم حتى طغى على نفسه ، وعلى أفكار الزهو والكبرياء التى ثارت فى رأسه وصدره قبل ساعات ، ثم وقعت الواقعة ... ! فقد توفى أوتومتكوفتش ، الأمير الشرقى الساحر قبل موعد انعقاد المؤتمر بليلة واحدة ... فلما سمع المستر جون خبر وفاته فزع أيما فزع ، وأصيب فى تفكيره بطائف من الشلل قضى على كل ملكاته وكفاياته ، وتناول الخطبة المكتوبة فلم يستطع أن يقرأ منها حرفاً ، ثم حاول أن يذكر الغرض الذى من أجله ينعقد المؤتمر غداة غد فلم يستبن من ذلك شيئاً ... ووقف ليرتجل الخطبة فلم يقـدر على صوغ عبارة واحدة .

وتذكر السائل السحرى فجأة فبادر إلى أخذ الجرعة التى حـــددها له المغفور له الأمير أوتو متكوفتش ...

ماذا أصاب السائل أيضاً ؟ ! أين الشذى الجميل الذى كان يفعم الحياشيم ويجرى حديداً فى الأعصاب ؟ مالهذا السائل ينحط فى المعدة كما ينحط الدواء الخبيث ، تعافه النفس ويتقزز منه الفم ؟ آه ! لقد ذهب السر الهائل بذهاب الأمير أوتو ؟ ! يالله ! لقد كانت نهاية المستر جون ماكاسفيلد الخطيب والمفكر السياسى الداهية أغرب من بدايته ! وعند ما اقتربت اللحظة الرهيبـة المهمة فى حياته ... ابتعدت عنه كالبرق عوامل النجاح ... يالله !

* * *

ووقف المستر جون يلقى خطبتـه ... فماذا حدث ... ؟

« ماهذه الفهاهة ؟ ماذاك الهى ؟ ماهذا التفكير السقيم ؟ من الذى دعا ذلك البهيم لينهق فى ذاك المؤتمر ؟ ما لنظراته تترجرج كالزئبق هكذا ؟ » ... وبمثل هـذه العبارات القاسية أنشأ المستمعون يسلقون جون بألسنتهم الحداد . وفى الحق ... لقد

ظل الناس حيارى فى أمر هذا الرجل ... يعلو ويعلو ويعلو حتى لا يكون علو... ثم يهوي ويهوى ويهوى حتى لايكون سُفل ... لقد ارتفع بالأمس القريب حتى لم يعد فى انجلترا كلها من يدانيه بلاغة وفصاحة وإشراق بيان وسمو تفكير ، فما باله الليلة قد هوى من حالق ؟ ! ليس أحد يدرى ! حتى ولا جون نفسه ... فلقد وقف فوق المنبر يبرق ويحملق ... ويبحث عن كلمة أو كلمتين يقولهما ، ولكن الكلام كله التاث عليه ... حتى ريقه جف فلم يستطع أن يبلعه ، وكان رطباً أبداً ! وأخذت العيون ترمقه ، والألسن تسلقه ، ووقف مسكيناً حائراً كالطفل الضال في المدينة الصاخبة ... وذكر أوتو فتمتم بصلاة خافتة ، ودعاء حار أن يدركه الأمير الشرق من عالم الأرواح ببعض سحره ... ولكن ... هيهات! فلقد ساد قاعة المؤتمر صمت يشبه الموت... وتبددت نفس المسكين لهفات وحسرات !

— « إنطق ياصاح ... تكلم ... إن برادفورد بريئة إذا طال هذا الحصَر[1] ... تكلم ... إنك موشك أن تقضى على شرفنا ! »

من كان يرسل هذا السخط فى جو المجلس ؟ آه ! إنه رجل من برادفورد ! وهكذا سقط المستر جون ما كاسفيلد من عالم السياسة والمجد البراق سقطة لاقيامة له من بعدها ... ودخل إلى هذه الدنيا الهادئة المتواضعة ... دنيا المراعى والأغنام والأصواف ... ولم يعد يدور فى خَلَدِه قط أن يضع إحدى قدميه فى دار البرلمان العتيدة ، ذات البريق وذات السنا...

بل آثر برادفورد الساكنة ، ولم يعد يقبل إلى لندن إلا مرة فى رأس كل شهر ، حيث يقيم ليلة أو ليلتين فى فندق ألرتز هول ، ليشرف من النافذة الحبيبة على الهايد بارك ... ويجتر هناك أحلامه

وتذكر السائل العجيب السحرى مرة بعد وفاة الأمير أوتو بستة أشهر ... فراح يجمجم فى نفسه بعض العبارات : « يالله من سائل ! لقد كان خداعاً عظيما ... ومع ذاك فما أظنه كان خداعاً صرفاً ، ولا وهماً محضاً » — وكان يجلس عند النافذة المطلة على الهايد بارك ، وهو يرسل هذه الكلمات ، وفى يده الزجاجة الخضراء التى كانت ما تزال تحوي قطرات من السائل السحرى ، كانت تشع سناء حلواً مشبعاً بالذكريات ، رغم الأشهر الستة الطويلة

ولما نام أخذت الأحلام تسبح فى رأسه المضطرب ، وسمع هاتفاً عجيباً يأمره أن ينهض من فوره ، فينطلق فى شوارع لندن لأن حظاً جديداً ينتظره ... وقد يكون فيه إسعاده ...

وهب من نومه ليضحك ملء شدقيه لهذه الرؤيا الشاردة

وكان الليل جميلاً مقمراً ، وكانت ليلة من أخريات الصيف اللندني العجيب ، فخطر له أن يحقق مدى ما فى هذه الرؤيا من صدق ... من أجل ذلك لبس ثيابه ووضع فوق رأسه القبعة ، وهرول على الدرج وانطلق يذرع حدائق الهايد بارك إلى محطة ڤكتوريا ، وهو لا يدرى ما الذى يدفعه ليسير فى هذا الطريق بالذات ... ولما بلغ كندرائية وستمنستر ... وقف وجهاً لوجه ، حائراً مرتبكاً

(١) الحصر العي وعدم استطاعة الكلام

أمام فتاة نحيلة ، منهوكة الجسم ، متشحة بملابس سوداء ... ما كاد ينظر إليها حتى عرفها !

ولكن الفتاة انفتلت فى شارع ضيق ، ثم دخلت منزلا حقيراً ، فقال جون :

« يا لله ! إنه لا يمكن أن يكون هنا مسكنها »

ولم يدر ماذا يصنع ...

ثم رأى كأنه يحلم ... وها هو شبح الأمير أوتو يدفعه نحو باب المسكن الذى انفتلت فيه الفتاة .. وها هى يد الشبح تمتد إلى الباب فتفتحه ... حيث رأى جون ماكاسفيلد حنة ، ذات الشعر الأحمر الذهبى ، واقفة خلفه !!

وصاحت حنة مذعورة : «مستر ماكاسفيلد!»

ويتم المستر جون قصته فيقول :

— « حقاً لقد كنت غراً أبله لا أعرف ما الدنيا قبل أن أعرف حنة .. إنها خير من السائل العجيب السحرى الذى اخترعه أبوها ألف مرة !! هأنذا أخطب خطباء أهل الأرض وأعمق مفكريهم بعد إذ تزوجتها »

دريني خشبة

كل ثوب مصرى علم من اعلام الحرية

تغزلها وتنسجها لنا

شركة مصر للغزل والنسج

وتبيعها جميلة متينة رخيصة

اطلبوا منتجاتها من

تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى